الفصل الثالث

الديانات السماوية الكبرى وتفسير التاريخ

- أولاً: التفسير الديني للتاريخ عند اليهود
- ثانياً: التفسير الديني للتاريخ عند المسيحيين
- ثالثاً: التفسير الديني للتاريخ عند المسلمين

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

مدخل..

تلتقي عملية تفسير التاريخ في الفكر الديني لأتباع رسالات السماء الكبرى.. اليهودية والمسيحية والإسلامية على أرضية مشتركة تستمد وجودها ووحدتها من وحدة العقائد السماوية التي جاءت بها هذه الرسالات عن الخالق والكون والإنسان والحياة، وإن احتوت هذه العقائد بعض التفصيلات التي قد لا يتطابق بعضها مع البعض الآخر بين ديانة وأخرى، إلا أنها تبقى تفصيلات عقائدية فرعية في هذا الدين أو ذاك لا تمس جوهر الاعتقادات الكبرى الثابتة التي يراد للإنسان أن يؤمن بها، كالإيمان بوجود الله تعالى، والإيمان بالبعث والحساب على سبيل المثال.

وتجمع العقائد السماوية على أن الله تعالى قد خلق الكون من العدم، وخلق الإنسان ليؤدي مهمته في إعمار الأرض خليفة لله تعالى. ثم ليرجع الإنسان بعد موته فيبعث ويقف بين يدي الله ليحاسبه على أعماله في هذا العالم الدنيوي. وتلك كلها تمثل (مسيرة تاريخية) بدايتها الخلق ونهايتها البعث والحساب[1]. ورحلة الإنسان بين تلك البداية وهذه النهاية تجسد مسيرة التاريخ البشري العام. ومن ثم يغدو يوم القيامة هو غاية التاريخ ونهايته. على أن هذه الرحلة تحظى على الدوام برعاية الله وعنايته وتوجيهه للإنسان لما فيه خير المسيرة (التاريخية) البشرية. وتجلت هذه العناية الإلهية بتتابع الرسل والأنبياء الذين يبعثهم الله تعالى ليرشدوا الناس الى الطريق القويم الذي يريد لهم الخالق اتباعه.

إن عقيدة الخلق والبعث والثواب والعقاب يوم القيامة، التي تمثل بمجملها المفاصل المهمة في مسيرة التاريخ، هي عقيدة مشتركة للديانات السماوية كما ذكرنا، وتعد منطلقاً لتفسير التاريخ عند أتباع هذه الديانات، وإن اختلف التفسير بين هؤلاء

(1) ينظر: الشرقاوي، عفت، في فلسفة الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت 1978، ص264.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

وأولئك في القليل أو الكثير من الجزئيات والتفاصيل التي لا تمس جوهر الاعتقادات الأساسية التي بنيت عليها نظرتهم للتاريخ البشري العام وتفسيرهم له. وجدير بالذكر أن المشتركات العقائدية في الأديان السماوية التي تعدّ كما ذكرنا منطلقا لتفسير التاريخ، لابدّ أن تتفاعل مع اتجاهات فكرية وعقائدية أخرى خاصة بكل دين منها كيما تشكل فلسفة للتاريخ، وتفسيراً لحوادثه وغاياته يختص أيضاً بهذا الفكر الديني أو ذاك، ويحمل سماته وملامحه.

أولاً: التفسير الديني للتاريخ عند اليهود

يقتضي التعرف على طبيعة التاريخ، واتجاهات تفسيره في فكر اليهود ومعتقداتهم الدينية، التي تعرضت في بعض جوانبها الى التغيير والتحريف، أن نقرر في البداية بأن الأسفار العبرانية المقدسة قد اتصفت في مضامينها بطابع تاريخي، الأمر الذي يشير الى اهتمام اليهود بتاريخهم. كما أن محتويات هذه الأسفار، وأساليب عرضها تدل على أن الإهتمام الذي أبداه اليهود بالتاريخ لا يقتصر على سرد الحوادث وتدوينها فحسب، بل يتعداه الى تفسير تلك الحوادث واستيعاب دوافع وتوجهات صناعها والمشاركين فيها، وعلاقة ذلك كله بالإله لما له من حضور دائم في حركة التاريخ[1] يتصف بالرعاية والعناية.

وفي واقع الحال فان اعتقاد اليهود بعلاقة الله بالتاريخ هو اعتقاد مشترك بين أتباع الديانات السماوية والأساس الذي يقوم عليه تفسيرهم للتاريخ. فبداية التاريخ البشري عند اليهود، كما جاء في سفر التكوين من العهد القديم، ترجع الى الله تعالى، فالله هو خالق البشر، وخالق الأرض ومانحها الخصائص التي تجعل من عيش الإنسان عليها وحركته فيها أمراً ممكناً لأجل معلوم عنده من الزمان[2]. وكل ذلك مما

(1) ويدجري، سبق ذكره، ص85. وعن العناية الإلهية (رعاية الله لعباده) ينظر: سفر المزامير، المزمور التسعون: 16-14، الكتاب المقدس، العهد العتيق، المجلد الثاني، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، بيروت 1992، ص121. وقد ضمت هذه الطبعة العهد العتيق (القديم) بمجلدين، فضلاً عن العهد الجديد. سنشير الى المجلد الأول فيما بعد بـ: العتيق 1، والى المجلد الثاني بـ: العتيق 2.

(2) ينظر: العتيق 1، سفر التكوين، الفصل (الإصحاح) الأول - الثالث، ص8 - 12.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

يهيء مادة التاريخ، وهي الإنسان وفعله في الزمان والمكان، ومن ثم يتيح التوصل لكيفيات قراءة التاريخ الذي تصنعه هذه المادة، وهو ما ندعوه (تفسير التاريخ).

إن الإيمان بالله (الخالق) هو اعتقاد اساسي في اليهودية، وكذلك الإيمان بأن الزمن يجري بأمره، وهو دائم الوجود «في جميع ما في التاريخ من الأماكن والأزمان»[1]. فالله هو المحرك للتاريخ «يتصرف في تاريخ الإنسان وله فيه هدف»[2] على حد قول كلود مونتيفيوري أحد أشهر علماء اليهود المعاصرين، الذي لم يخرج في كلامه هذا على التصورات السلفية التقليدية اليهودية بهذا الشأن.

ومسيرة الحياة الدنيا للإنسان، أي مسيرة التاريخ التي تحظى بتوجيه الله الذي يريد لها أن تمضي نحو الهدف المرسوم، لا تمثل فيها الحياة الدنيا خاتمة المطاف، بل لابد من الوصول الى يوم الدينونة (القيامة) الذي يعد نهاية للمسيرة التاريخية البشرية كما يصرح الكتاب المقدس[3]. وهو يوم يشهد فيه الناس حساباً على الأعمال التي قاموا بها خلال تلك المسيرة، ومن ثم يثابون أو يعاقبون عليها، لأنهم اقترفوها بمحض إرادتهم، فالإنسان له حرية مطلقة في الامتثال لأوامر الرب أو عصيانها، كما توحي بذلك قصة آدم وحواء في سفر التكوين[4].

على أن عقيدة الدار الآخرة، وما يتبع الإيمان بها من إيمان بالبعث والحساب والثواب والعقاب يوم القيامة الذي يكون بمثابة نهاية للتاريخ وغاية له، موجودة في أصول العقيدة اليهودية، وإن لم تكن واضحة في كتب اليهود المقدسة لقلة الإشارة إليها في هذه الكتب. إلا أن هذه العقيدة قد انتعشت عند اليهود، فيما يبدو، بعد السبي البابلي، وانبعثت بعد سبات وركود أصابها. وكان انبعاثها، كما هو واضح، نتيجة لذلك السبي وتداعيات محنه ومصائبه التي حلت بهم، إذ رجع اليهود، كما يبدو، الى

---

(1) ويدجري، سبق ذكره، ص87. وعن الإله الخالق وجريان الزمن بأمره ينظر: العتيق 2، سفر المزامير، المزمور الثامن: 4، ص58؛ المزمور التاسع: 16، ص59.

(2) ويدجري، نفسه، ص91.

(3) العتيق 1، سفر يهوديت، الفصل السادس عشر: 20 - 21، ص874.

(4) ينظر: العتيق 1، سفر التكوين، الفصل الثالث 1 - 24، ص11 - 12؛ الشرقاوي، محمود، التفسير الديني للتاريخ، دار الشعب، القاهرة (د. ت)، ص164.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

بعض الأصول العقائدية السماوية الصحيحة التي جاءت بها ديانتهم ليحيوا ما فيها من السلوى والأمل الذي يخفف من وقع تلك المحن والمصائب عليهم.

ويمكن القول إن تفسير التاريخ بجزئه المتعلق بالمسيرة التي تجعل من البعث والحساب غاية للتاريخ البشري ونهاية له، لم يكن واضحاً في الفكر الديني اليهودي قبل الأسر البابلي. فاليهود قبل مصيبة الأسر التي حلت بهم كانوا لا يحفلون كثيراً بأمر الآخرة، إذ ركزت كتاباتهم الدينية آنذاك على الأعمال الدنيوية التي عدّت ما يستحقه الإنسان من ثواب أو عقاب عن تلك الأعمال سوف يناله في هذه الدنيا. ومن ثم كان اعتقادهم بأن ما حل بهم من مصائب ونكبات هو عقاب لهم على معصيتهم لأوامر الرب. واعتقدوا أيضاً بأن من لا يمتثل لأوامر الرب من الأفراد يجازى في حياته بالفقر والمرض وسواهما من العقوبات الدنيوية[1].

إن هذا التصور عن العقوبات في الفكر اليهودي انعكس قبل الأسر البابلي على تفسير مسيرة التاريخ عند اليهود لاسيما في جزئها المتعلق بطبيعة حركة التاريخ في الحياة الدنيا، إذ كان اليهود آنذاك يفسرون كثيراً من حوادث التاريخ على أنها إرادات إلهية يجازى بها الناس في حياتهم الدنيا ثواباً أو عقاباً. وكان هذا الأمر واضحاً في تفسير مؤرخيهم للهزائم الحربية، فالكوارث التي حلت بشعب الله (المختار) ما هي إلا عقاب رباني دنيوي على الآثام التي ارتكبها هذا الشعب، كما ورد في سفر (أخبار الأيام الثاني)[2].

من جانب آخر، فان الفكر الديني اليهودي تضمن تصورات عديدة أخرى عن كيفيات مسيرة التاريخ البشري، وطبيعتها خلال مشوار هذه المسيرة الواقع بين بداية التاريخ وغايته، أو بين الخلق والقيامة، من أهمها:

1 - إيمان كثير من اليهود بأن مسيرة التاريخ لا تكتمل ولا تبلغ غايتها إلا بظهور المسيح وقيام مملكة مسيحية، فالمسيح لم يبعث بعد عند اليهود كما هو

(1) ينظر: العتيق، سفر تثنية الاشتراع، الفصل الثامن والعشرين: 21 - 52، ص344 - 436؛ العتيق 2، مقدمة سفر أيوب، ص4.

(2) ينظر: العتيق 1، سفر أخبار الايام الثاني، الفصل السادس والثلاثون: 14 - 20، ص780.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

معروف، ولابد من مجيئه وإن طال الزمن. ومن ثم بدأ المؤمنون بهذه العقيدة يولون التاريخ اهتماماً خاصاً ليتطلعوا على أساسه نحو المستقبل الذي سيظهر فيه المسيح وتقوم فيه المملكة المسيحية. إلا أن طول انتظار اليهود لتحقيق أملهم بظهور المسيح، وما تخلل ذلك الانتظار من كوارث كانوا يكابدونها على الدوام. عدّل فكرة الإيمان بالمملكة المسيحية، فأصبح بعضهم يؤمن بأن هذه المملكة ستكون في عالم آخر، وقال آخرون بإمكان أن لا يظهر المسيح بشخصه، وأن تقام مملكة على غرار ما يرجى من المملكة المسيحية تحقيقه من صدق وعدل وسلام[1].

2 - وفيما يتعلق بتاريخية اليهود وموقعها من التاريخ البشري، يرى بعض اليهود الذين استحوذت عليهم فكرة شعب الله المختار، أن الشتات الذي عاشه اليهود، وعدّ كارثة كبرى في تاريخهم، لم يكن كارثة في واقع الحال وهو ليس عقاباً من الله، وقد سمح به الرب، ولم يسمح به فحسب، بل جاء تفضلاً منه على اليهود لكي «ينفذّوا رسالتهم الدينية باعتبارهم الشعب المختار»[2].

وهكذا مارست فكرة (الشعب المختار) في نظر هؤلاء دورا ليس في تاريخ اليهود فحسب، بل في مسيرة التاريخ العام للبشرية كيما تدفع هذه المسيرة لتحقيق أهدافها، ووصول التاريخ الى غايته. ويتضح هذا جلياً في ما يراه كلود مونتيفيوري من أن الله الذي يتصرف في تاريخ الإنسان، ويضع له أهدافاً، يهب من أجل بلوغها بعض الشعوب والأفراد قدرات معينة ويكلفهم بأعمال مختلفة، «وهكذا كان اليهود شعباً مختاراً... عليه أن يتعلم ويساعد على نشر المبادئ والخبرة الحقة عن الله، وعن علاقة الإنسان بالله، وعلاقة الله بالإنسان»[3].

3 - تضمن الكتاب المقدس بعض التصورات المجملة لمسيرة التاريخ، كان منها تصور يماثل فكرة التعاقب الدوري[4]، إلا أن مثل هذا التعاقب والتكرار في حوادث التاريخ يتعلق بالتواريخ الخاصة وليس بالتاريخ البشري (التاريخ

(1) ينظر: ويدجري، سبق ذكره، ص90، 91.
(2) ويدجري، سبق ذكره، ص91.
(3) نفسه، ص91 - 92.
(4) ينظر: العتيق 2، سفر الجامعة، الفصل الأول: 9، ص210.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

العام)، ذلك أن التاريخ البشري له بداية، كما أن له نهاية، وهذه النهاية لا يمكن الوصول إليها إذا كانت مسيرة هذا التاريخ تتحرك ضمن دورات متعاقبة. على أن هذه الحركة الدورية (الخاصة) أو الجزئية لم تتضمن تصوراً بوجود (تقدم) مطرد في مسيرة التاريخ، إذ أن كتب اليهود المقدسة «لم تعطنا أية إشارة عن اقتناع القوم بوجود أي تقدم متواصل في التاريخ، وإنما هناك، على الأصح، تعاقب للحركات: أماماً وخلفاً، وأوقات الرخاء وأوقات الشدائد»[1]، وذلك ضمن إطار مسيرة التاريخ العام المتجهة نحو نهايتها بيوم الحساب.

ثانياً: التفسير الديني للتاريخ عند المسيحيين

انطلق التفسير الديني في الفكر المسيحي من الموروث العقائدي اليهودي الذي يربط بين الإله وحركة التاريخ، ويفسر هذه الحركة بمسيرة البشرية التي تبدأ بالخلق وتنتهي بالبعث والحساب[2]، وهو تفسير جامع لأتباع الديانات السماوية، والذي يستند الى وحدة العقائد السماوية في أصولها ومنابعها الرئيسة.

إلا أن التصورات الفكرية التي أسقطها القديسون ورجال الدين، الذين نظّروا للمسيحية فكراً وعقيدة وعملاً، على هذه الديانة منذ وقت مبكر من وجودها، أضفت على عملية تفسير التاريخ ملامح كثيرة مختلفة عما كانت قد أفرزته العملية نفسها لدى اليهود. ويمكن القول إن جوانب مهمة من عملية تفسير التاريخ أصابها تغير جذري من المنظور العقائدي للمسيحيين الذي امتلك رؤية خاصة لقضايا التاريخ الكبرى وموقع المسيحية منه، تتمثل في مفاهيم: الخطيئة، والتجسد، والفداء، والقيامة، وعودة المسيح.

كما أن موضوع التوحيد كان له أثر مهم في تبلور نظرة خاصة في تفسير التاريخ عند المسيحيين، ذلك أن الإيمان بعلاقة حركة التاريخ البشري بالإله الخالق في التفسير الديني للتاريخ عند أتباع الديانات السماوية ،كان له منظور مغاير لدى المسيحيين أوجده تحول عقيدة الإيمان بوحدانية الله تعالى عندهم الى عقيدة

---

(1) ويدجري، سبق ذكره، ص86.
(2) روزنثال، سبق ذكره، ص38؛
Jaspers, op. cit, p.141.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner